الحَدِيثُ السَّابِعُ والعِشْرُونَ

عَنْ النَّوَاسِ بْنِ سِمْعَانَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ» [رَوَاهُ مُسْلِمٌ][(١)].

وَعَنْ وَابِصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ ﷺ قَالَ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «جِئْتَ تَسْأَلُ عَنْ الْبِرِّ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «اسْتَفْتِ قَلْبَكَ؛ الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ» [حَدِيثٌ حَسَنٌ، رُوِينَاهُ فِي مُسْنَدَيْ الإِمَامَيْنِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَالدَّارِمِيِّ، بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ][(٢)].

هَذَانِ الحَدِيثَانِ فِي بَيَانِ البِرِّ، بِمَاذَا يَكُونُ وَبِمَاذَا يَتَحَقَّقُ، وَالبِرُّ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ لِكُلِّ خِصَالِ الخَيْرِ، مِثْلُ التَّقْوَى جَامِعَة لِكُلِّ خِصَالِ الخَيْرِ، وَالبِرُّ ضِدُّهُ الإِثْمُ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾[المائِدَة:٢]. وَالنَّبِيُّ ﷺ فِي هَذِينِ الحَدِيثَيْنِ بَيَّنَ البِرَّ وَالإِثْمَ.

قَوْلُهُ: «**البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ**» يَعْنِي: أَنَّ حُسْنَ الخُلُقِ نَوْعٌ عَظِيمٌ مِنْ أَنْوَاعِ البِرِّ، وَلَيْسَ أَنَّ البِرَّ كُلَّهُ مَحْصُورٌ فِي حُسْنِ الخُلُقِ، وَإِنَّمَا حُسْنُ الخُلُقِ هُوَ أَعْظَمُ أَنْوَاعِ البِرِّ؛ كَقَوْلِهِ ﷺ: «**الحَجُّ عَرَفَةَ**»[(٣)] الوُقُوفُ بِعَرَفَةَ لَيْسَ هُوَ كُلَّ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٥٣).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٧)، والدارمي (٢/ ٢٤٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٨٨٩)، والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٢٤)، وابن ماجه (٣٠١٥)، وأحمد في المسند (٤/ ٣٠٩)، وابن خزيمة في صحيحه (٤/ ٢٥٧)، وابن أبي شيبة في مصنفه =

الحَجِّ، وَلَكِنَّهُ أَعْظَمُ أَرْكَانِ الحَجِّ، وَمِثْلَ قَوْلِهِ ﷺ: «**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ**»(١) مَعَ أَنَّ الدُّعَاءَ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ العِبَادَةِ، وَلَكِنَّهُ أَعْظَمُ أَنْوَاعِ العِبَادَةِ، فَحُسْنُ الخُلُقِ نَوْعٌ عَظِيمٌ مِنْ أَنْوَاعِ البِرِّ.

وَ«**حُسْنُ الخُلُقِ**» مَعْنَاهُ سِعَةُ البَالِ وَالبَشَاشَةُ فِي الاسْتِقْبَالِ، وَالتَّعَامُلُ مَعَ النَّاسِ بِمُعَامَلَةٍ طَيِّبَةٍ، كَمَا قَالَ ﷺ: «**وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»(٢) وَهَذِهِ صِفَةُ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ اللهُ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القَلَم: ٤]، فَحُسْنُ الخُلُقِ يَشْتَمِلُ عَلَى خَيْرَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَيُكْسِبُ مَحَبَّةَ النَّاسِ لِصَاحِبِ الخُلُقِ الحَسَنِ، وَأَيْضًا إِذَا كَانَ الدَّاعِيَةُ ذَا خُلُقٍ حَسَنٍ أَدَّى ذَلِكَ إِلَى هِدَايَةِ النَّاسِ بِقَبُولِ دَعْوَتِهِ، وَهَذَا هُوَ أَعْظَمُ أَنْوَاعِ البِرِّ.

قَالَ: «**وَالإِثْمُ**» هُوَ ضِدُّ البِرِّ، مَا يُؤْثِمُ مِنَ الأَخْلَاقِ وَالأَعْمَالِ وَالأَقْوَالِ، «**مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ**» يَعْنِي طَرَأَ عَلَى النَّفْسِ، وَحَدَّثَتْ بِهِ النَّفْسُ لَكِنَّ صَاحِبَهُ يَكْرَهُهُ، وَفِي الرِّوَايَةِ الأُخْرَى: «**وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ**»، فَإِذَا كَانَ صَاحِبُهُ يَتَرَدَّدُ هَلْ يُصَرِّحُ بِهِ أَوْ لَا يُصَرِّحُ؟ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ إِثْمٌ، وَالمُرَادُ بِالنَّفْسِ هُنَا: نَفْسُ المُؤْمِنِ التَّقِيِّ، أَمَّا الفَاجِرُ فَهُوَ لَيْسَ مِيزَانًا لِلْبِرِّ وَالإِثْمِ، إِنَّمَا

=

(٣/ ٢٢٦)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٣٥)، والدارقطني في سننه (٢/ ٢٤٠)، والبيهقي في الكبرى (٥/ ١٧٣) من حديث عبدالرحمن بن يعمر رضي الله عنه.

(١) أخرجه أبوداود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٥٠)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وأحمد في المسند (٤/ ٢٦٧)، والبخاري في الأدب المفرد (ص٢٤٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٢١)، والطبراني في الصغير (٢/ ٢٠٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٦٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٧) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه (ص١٦٨).

المَقْصُودُ المُسْلِمُ التَّقِيُّ الذِي يُعْتَبَرُ اسْتِحْسَانُهُ لِلشَّيْءِ أَوْ اسْتِقْبَاحُهُ لَهُ، فَالذِي تَكْرَهُ أَنْ تُصَرِّحَ بِهِ، وَتَكْرَهُ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ، هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ إِثْمٌ، فَاتْرُكْهُ وَتجَنَّبْهُ، فتكُونُ نَفْسُ المُؤْمِنِ مِقْيَاسًا وَمِيزَانًا.

فَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ، وَهَذَا الحَدِيثُ مِنْ جَوَامِعِ الكَلِمِ التِي أُوتِيَهَا النَّبِيُّ ﷺ، وَجَوَامِعُ الكَلِمِ: جَمْعُ جَامِعٍ، وَهُوَ مَا يَجْمَعُ مَعَانِي كَثِيرَةً، وَهَذِهِ صِفَةُ كَلَامِهِ ﷺ.

وَفِي حَدِيثِ وَابِصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ أَنَّهُ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يُرِيدُ أَنْ يَسْأَلَهُ، فَالنَّبِيُّ ﷺ ابْتَدَرَهُ وَقَالَ لَهُ: «**جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْبِرِّ؟**» وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ: «**أُخْبِرُكَ أَوْ تَسْأَلُنِي؟**» قَالَ وَابِصَةُ: لَا بَلْ أَخْبِرْنِي، فَقَالَ: «**جِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ البِرِّ وَالإِثْمِ**»(١)، وَهَذَا مِنْ عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ، أَنْ يُطْلِعَهُ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عَلَى مَا جَاءَ مِنْ أَجْلِهِ وَابِصَةُ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَهُ، ثُمَّ بَيَّنَ لَهُ ﷺ أَنَّ «**الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ**» وَالطُّمَأْنِينَةُ: ضِدُّ القَلَقِ وَالاضْطِرَابِ، وَهِيَ الاسْتِقْرَارُ وَعَدَمُ التَّسَرُّعِ أَوِ القَلَقِ، فَالمُطْمَئِنُّ هُوَ الثَّابِتُ، وَضِدُّهُ المُضْطَرِبُ القَلِقُ، «**مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ**» يَعْنِي: قَلْبُ المؤْمِنِ وَنَفْسُ المُؤْمِنِ.

قَالَ: «**وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ**»، وَفِي الرِّوَايَةِ الأُخْرَى: «**وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ**»، فَالإِثْمُ يَحْصُلُ فِي نَفْسِكَ وَلَكِنْ لَا تَجْرُؤُ أَنْ تُظْهِرَهُ، لَوْ كَانَ بِرًّا مَا تَرَدَّدْتَ فِي الإِعْلَانِ بِهِ، فَتَرَدُّدُكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ إِثْمٌ؛ لِأَنَّ اللهَ جَعَلَ فِي نَفْسِ المؤْمِنِ نُورًا وَمَعْرِفَةً بِالخَيْرِ وَالشَّرِّ، قَالَ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٢٢٨)، وأبويعلى في مسنده (٣/ ١٦٢)، والطبراني في الكبير (٤٠٣).

تَعَالَى: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩]، الفُرْقَانُ: هُوَ التَّمْيِيزُ بَيْنَ الخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالضَّارِّ وَالنَّافِعِ، هَذَا هُوَ الفُرْقَانُ، فَنَفْسُ المؤْمِنِ يَجْعَلُ اللهُ فِيهَا فُرْقَانًا تمُيِّزُ بِهِ بَيْنَ الخَيْرِ وَالشَّرِّ.

ثُمَّ قَالَ ﷺ: «**وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ**»، «**أَفْتَاكَ**» أو «**أَفْتَوْكَ**» المَعْنَى وَاحِدٌ، لَكِنَّ هَذَا مِنْ بَابِ التَّأْكِيدِ؛ لِأَنَّ العِبْرَةَ لَيْسَتْ بِمُجَرَّدِ الفَتْوَى مِنَ العَالِـم، وَإِنَّمَا العِبْرَةُ مَعَ ذَلِكَ بِنَفْسِكَ، فَإِذَا وَجَدْتَ نَفْسَكَ تَطْمَئِنُّ إِلَى هَذِهِ الفَتْوَى فَهَذَا بِـرٌّ، وَإِذَا وَجَدْتَ نَفْسَكَ تَكْرَهُ هَذَا الشَّيْءَ فَهَذَا إِثْمٌ، وَالعَالِـمُ لَيْسَ مَعْصُومًا، فَقَدْ يُخْطِئُ، أَوْ يُجِيبُ عَلَى الظَّاهِرِ وَلَا يَدْرِي عَنِ البَاطِنِ، وَقَدْ يَكُونُ العَالِمُ عَالِمَ ضَلَالٍ، وَالعُلَمَاءُ لَيْسُوا سَوَاءً، فَالمُهِمُّ أَنَّكَ لَا تَعْتَمِدُ عَلَى الفَتْوَى حَتَّى تَطْمَئِنَّ نَفْسُكَ إِلَيْهَا، فَإِذَا اطْمَأَنَّتْ نَفْسُكَ إِلَى هَذِهِ الفَتْوَى، فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا صِدْقٌ وَبِرٌّ، أَمَّا إِذَا نَفَرَتْ نَفْسُكَ مِنْ هَذِهِ الفَتْوَى وَلَـمْ تَطْمَئِنَّ إِلَيْهَا فَاتْرُكْهَا؛ لِأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ الذِي لَهُ هَوَى وَرَغْبَةٌ فِي الشَّيْءِ يَقُولُ: مَا دَامَ أَفْتَى فُلَانٌ بِهَذَا فَلَيْسَ عَلَيَّ شَيْءٌ، وَهَذَا فِي ذِمَّتِهِ.

فَنَقُولُ لَهُ: فُلَانٌ لَا يُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّـهِ شَيْئًا، وَلَا يَعْلَمُ الغَيْبَ، وَلَيْسَ مَعْصُومًا، وَلَا تَدْرِي عَنْ مَدَى صَلَاحِهِ وَدِينِهِ، فَلَا تَعْتَمِدْ عَلَى مجُرَّدِ الفَتْوَى حَتَّى تَعْرِضَهَا عَلَى نَفْسِكَ، فَإِذَا وَجَدْتَ نَفْسَكَ مُطْمَئِنَّةً إِلَيْهَا وَلَيْسَ عِنْدَكَ تَرَدُّدٌ فِيهَا وَلَا كَرَاهِيَةٌ فَخُذْ بِهَا، وَإِذَا وَجَدْتَ العَكْسَ فَاتْرُكْهَا، هَذَا مِيزَانٌ عَظِيمٌ يَسِيرُ عَلَيْهِ المُؤْمِنُ فِي الفَتْوَى.

وَالآنَ كَثُرَتْ شِكَايَاتُ النَّاسِ مِنْ كَثْرَةِ الفَتَاوَى وَكَثْرَةِ مَنْ يُفْتُونَ، فَهَذِهِ عَلَامَةٌ تمُيِّزُ لَكَ هَذِهِ الفَتَاوَى، فَمَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهَا نَفْسُكَ مِنْهَا فَهَذِهِ حَقٌّ، وَمَا نَفَرَتْ نَفْسُكَ مِنْهُ فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ خَطَأٌ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَتَجَنَّبَهُ، وَلَا تَقُلْ:

أَفْتَى فُلَانٌ وَقَالَ فُلَانٌ، وَهَذَا شَيْءٌ فِي ذِمَّتِهِ. هُوَ عَلَيْهِ مَا تحَمَّلَ، وَأَنْتَ عَلَيْكَ مَا تحَمَّلْتَ لَا يُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّـهِ شَيْئًا، وَقَدْ تُبَهْرِجُ عَلَيْهِ، أَوْ تَقُولُ لَهُ كَلَامًا عَلَى خِلَافِ الحَقِيقَةِ، وَهُوَ يُفْتِيكَ عَلَى مَا يَسْمَعُ، كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْضِي عَلَى نَحْوِ مَا يَسْمَعُ؛ لِأَنَّهُ بَشَرٌ(١).

فَعَلَى المُسْلِمِ أَنْ يَتَّخِذَ هَذَا الحَدِيثَ مِيزَانًا يَسِيرُ عَلَيْهِ فِيمَا يَسْمَعُ أَوْ يُقَالُ أَوْ يُكْتَبُ مِنَ الفَتَاوَى، خُصُوصًا فِي هَذَا الزَّمَانِ الذِي قَلَّ فِيهِ خَوْفُ اللَّـهِ وَتجَرَّأَ النَّاسُ عَلَى الفَتْوَى، وَعَلَى القَوْلِ عَلَى اللَّـهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ، فَهَذَا الحَدِيثُ يَنْفَعُ نَفْعًا عَظِيمًا فِي مِثْلِ هَذَا الوَقْتِ، وَهُوَ نَافِعٌ فِي كُلِّ وَقْتٍ، لَكِنْ كُلَّمَا اشْتَدَّتِ الحَاجَةُ إِلَيْهِ كَانَ نَفْعُهُ أَعْظَمَ، فَمَا يَسْمَعُ المُسْلِمُ مِنْ الأَقْوَالِ وَالفَتَاوَى يُمَيِّزُ بَيْنَهَا بِمِيزَانِ نَفْسِهِ، وَمَا تَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ وَمَا تَنْفِرُ مِنْهُ، لَكِنَّ بَعْضَ النَّاسِ إِذَا صَارَ لَهُ هَوَى، فَإِنَّهُ يَتَّبِعُ الأَقْوالَ وَالفَتَاوَى وَلَوْ مَا اسْتَسَاغَهَا فِي نَفْسِهِ، إِنَّمَا يَأْخُذُهَا طَاعَةً لهَوَاهُ وَهَذَا إِثْمٌ بِلَا شَكٍّ.

* * *

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها، قال: سمع النبي ﷺ خصومة باب حجرتهن فخرج إليهم، فقال: «**إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صدق، فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها أو فليتركها**».